

معنى الآية الكريمة: " يقول تعالى: (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا هُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا) الكهف/19-20، أي: وكما أرقدناهم ، بعثناهم ، صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: (كم لبثتم) ؟ أي: كم رقدتم؟

(قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) : كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدرکوا فقالوا: (أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: (فابعثوا أحدكم بورقكم) أي: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلماذا قالوا: (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أي: مدينتكم التي خرجتم منها ، والألف واللام للعهد.

(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا) : أي: أطيب طعاما .

وقوله (وَلْيَتَلَطَّفْ) أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَلَطَّفْ، كل ما يقدر عليه. (ولا يشعرون) أي: ولا يُعلمن (بكم أحدا * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم) أي: إن علموا بمكانكم، (يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم) ، يعنون : أصحاب دقيانوس ؛ يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا .

وإن وآتوهم على العود في الدين : فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال (ولن تفلحوا إذا أبدا) " انظر تفسير ابن كثير: (145 /5).

ويقول الشيخ السعدي في بيان الآية: " يقول تعالى: (وكذلك بعثناهم) أي: من نومهم الطويل (ليتساءلوا بينهم) أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه. في طول مدتهم، فلماذا (قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً .

ولعل الله تعالى -بعد ذلك- أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم، الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكيمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً.

ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله. (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا)؛ فلولا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر .

ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أذكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرون بهم أحداً.

وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين :

إما الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحنقهم عليهم وعلى دينهم .

وإما أن يفتنوهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال : لا يفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم ، تفسير السعدي: (473).

ثالثاً:

قوله تعالى: (ولن تفلحوا إذا أبدا) [الكهف: 20]، عائد على الرجوع في ملة الكافرين، ولذلك قال الطبري: " ولن تدركوا الفلاح، وهو البقاء الدائم والخلود في الجنان، إذن ؛ أي : إن أنتم عدتم في ملتهم "، جامع البيان: (215 / 15).

فالآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء الفتية أن أحد الأمرين سيحصل لهم، إما أن يُرجموا (يقتلوا)، أو يرجعوا إلى ملتهم القديمة، ثم رتبوا على الرجوع في ملتهم فقط : نفي الفلاح في المستقبل .

قال الزجاج: " (إذا) : يدل على الشرط، أي: ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبداً" . "معاني القرآن" (570 / 13).

والخلاصة

أن هؤلاء الفتية خافوا على أنفسهم ، من ظهور القوم عليهم : أحد الأمرين : إما القتل ، وفيه الهلاك .

وإما أن يكرهوهم على العود إلى ملة الكفر ؛ وفي هذا العود : خسران الدنيا والآخرة .

والله أعلم .